

زوجته، والتي ستتوارى بعيداً عن موقع العشيق في حياته، لتحتل هذا المكان أخريات يتردد (سوان) على بيوتهن ما بين مساء وآخر، والموضع الآخر الذي تنهض فيه الرواية يتمثل في قصة حب الراوي (وهو بروست نفسه) لـ (جلبرت) وهي ابنة (سوان) التي كانت تتردد أحياناً وهي صغيرة مع والدها لزيارة أسرة بروست، ولكأن هذا الحب من قبل بروست لـ (جلبرت) هو الصيغة التبادلية لموقع العشيق والعشيقة الذي كان يمثله (والد جلبرت) أعني (سوان) و (أم بروست) فبعد أن كان الوالدان على علاقة غرامية تغيّر الموقع فصار الولدان يحتلان، وقد تركت هذه العلاقة العشيقية ما بين بروست و (جلبرت) ندوباً بادية لم تمحَ، ذلك لأن (جلبرت) وبقدر ما كانت تتقرب من بروست راحت تنفر منه لأنها أدركت شذوذه، فهو يبحث فيها ليس عن ما هو أنثوي وإنما عن ما يبعدها عن حقلها الأنثوي أولاً، وما يؤدي مشاعرهما ثانياً. بل إن بروست نفسه أحس وهو في حمى اندفاعه تجاه (جلبرت) أنها لا تعني ولا تمثل الاستجابات الطبيعية لرغباته العطشى، ولذلك انتهت العلاقة بالإخفاق، كما أن الرواية تنهض من مواضع أخرى لها علاقة بالحب أيضاً وذلك حين يسطر بروست قصة علاقته العشيقية بـ (البرتين) تلك التي أوقدته كرجل في ذلك المساء الذي ضمّه مع نفر من أصدقائه، هذه الصديقة التي حاولت أن تحب بروست بتوجيهات من عقلها لا عاطفتها، لكنها لم تستطع فنفرت منه وقد أوهم هو نفسه أنه عشقها، بل إنه لم يعشق سواها، ولكن النهاية يستصير إلى اكتشاف أحدهما للآخر بأنهما على درجة كبيرة من الشذوذ فـ (البرتين) شاذة وهو شاذ ولا مجال للقيا بينهما، وسعادة أي منهما ليست عند الآخر، سعادتهما في الجانب المثلي تماماً، وعلى الرغم من ذلك تبدو جماليات الكتابة عند بروست في جزء (السجينة) ومن ثم في جزء (الهارية) وأحداثهما تدور حول (البرتين) نفسها.

بعد كل هذا الجولان في أحداث الرواية يحس المرء أن القارئ المستعجل أو القصدي لن ينال شيئاً من معطياتها ومفاتيحها خصوصاً إذا ما توقف عند المئات الأولى من صفحاتها، ولكن الرواية حقيقة هي من الروايات الكبيرة حجماً وتطلعاً لأنها لا تحفل بالخطط التي عرفتها الروايات السابقة عليها كالروايات الأراسطية أو الخطية على سبيل المثال، وهي لا تمثل لنهج معروف سابقاً، لأنها تخط الذكريات، والأحداث الراهنة، والعاطفة، ووعي العقل، وشرارات الفلسفة، ووجوه التأمل المتعددة كلها في بوتقة واحدة لتصير رواية عصية على التصنيف، فهي ليست رواية تاريخية، ولا هي رواية شخصيات أو أحداث، كما